التبغ المحترق

قصة عراقية

بقلم : على الأسعد

السحب الزرقاء تتعانق بين أجفان غرفته ، فتتشبع برائحة التبغ المحروق .. والأفكار تتراكم فى رأسه دون أن فهو دائم التحليق فى اللا واقع ، باحثا يمسك بالخيط الأول منها .. تبحر به الى شطآن الغيبوبة المتسربلة بالخيال الشفاف ، باعثة فيه النشوة واللذة . فهو دائم التحليق فى اللاواقع ، باحثا عن حياته التى يعيشها فى الأحلام فقط .

أعقاب السجاير تملأ المنفضة البيضاء المزخرفة ... دون أن يحس أو يشعر كم من الوقت قد مر عليه وهو فى مكانه لم يغادره كأنما شد اليه شدا . ان رأسه الملقى على الوسادة ، بدأ يتحرك فى نواح عدة .. أخذ يجيل بصره فى أثاث الغرفة .. الراديو الكبير ينفث موسيقى زنجية صاخبة ولكن دون أن تحرك فيه ذرة واحدة من جسده .. المروحة العجوز تصرخ فى أنين مكتوم .. الكتب والمجلات تتناثر فى أرض الغرفة بلا ترتيب كأنه اعتاد ذلك .

ما هذه الأفكار التى أخذت تغزو تفكيره .. ؟ .. منذ أيام وهو يشعر بشىء جديد يطغى على كيانه دون أن يجد أى تفسير له .. كلما أراد أن يطرح بضعة أسئلة واختلط تفكيره وعاوده الخوف والوجل خشية من أن يكون فى تساؤله مايدعو الى الهزء والسخرية منه .. فهو يذكر جيدا ماحدث له فى أيام بعيدة خلت .. حينما وقف أمام المرآة يطيل التحديق فى وجهه .. انه لايدرى لماذا شعر براحة حينما طالعه وجهه النحيف ، وذقنه العريضة ، وعيناه الواسعتان كبحيرتين عميقتين .. وشعره الكستنائى المجعد .. لم يدر كم طال وقوفه ذاك .. انما الذى يدريه انه سمع أباه يقول له : « ها ابنى .. اشوفك واكف اكبال المراية تباوع لنفسك » .. ولم يقل شيئا . سوى انه ارتبك قليلا واحمر وجهه .. انه لا يزال يشعر كيف كان وجهه يلتهب والدماء الحارة تكاد تشق جلده وتخرج .. ثم استطرد والده: « يابه انت قابل البنية حتى توكف كبال المراية كل هالمدة .. ها .. ها .. ها .. » .

انه يذكر جيدا هـــذه القهقهة التى جعلته ينكمش على نفسه حتى شعر انه يذوب شيئا فشيئا . كأى شىء حقير .

وضرب بقبضـته على السرير بقـوة وقسـوة ضربات سريعات متـوالية .. كانما يحاول بذلك ضرب والده .. دون أن يدرى .

انه يعـــرف الآن كيف كان محـط السخرية الدائمة من قبل والده يثيره دائما سواء كان ذلك أمام اخوته أم أمام الاصدقاء والزوار .. مما جعله يتمنى الموت كى يخلص من هذا العذاب الذى يربكه ويجعله غير قادر على أن يتنفس حياته .. وبحرية .

لقد شعر منذ ذلك أن خير ما يفعله هو أن يبتعد عن الجميع دون أن يجعلهم يعلمون مابه .. فهجر مجالسهم على كره منه أو مضض .. انه لصعب حقا أن يهجـر الانسان مرابع طفولته ويحاول نسيانها .. ولكن القوة الخارجية غالبا ماتدفع المرء الى أن يهجر نفسه أيضـا اذا شعر ان ذلك يؤدى به الى الراحة .. ولكن أين هى الراحة التى نشدها ، فلم يحصد سوى القلق والتيه فى هذا الفراغ الهائل .. ان الالوان فقدت تأثيرها عليه .. حتى الفتيات أصبحن مجرد خيال يمر عليه دون أن يتمتع به .

وها هو الآن ، بعد مضى أربع سنين، لايزال يعانى الضياع .. مأساة وجوده التى خلقت معـــه دون أن يكون بيده شىء .

ترى مانهاية الحياة .. ؟ .. وماذا وراءها ؟.. هـــل صحيح مايقـــال ان المـوت ماهو الا طريق لحيـــاة جديدة تعود فينا .. ؟

آه .. ان الآلام تـكاد تحرقنى .. تجعلنى شيئا تافها فى خضـم هـــذا الوجود .

سكت محدثى . ثم حدق فى وجهى من خلال السحب الزرقاء التى تخرج من فمه حتى أخذت تملأ الغرفة من جديد .. فيها رائحة التبغ المحترق .